دفاتر ممدوح حمادة

002

دفتر الحرب



هذه النسخة مخصصة للبيع في سوريا فقط

دفتر الحرب



دفتر الحرب

قصص قصيرة

تأليف: ممدوح حمادة

التدقيق اللغوي: عمر الخولي

الإخراج: فايز علام

تصميم الغلاف: لؤي حازم

ISBN: 978 - 9933 - 540 - 21 - 0

الطبعة الأولى: 2016

دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - ص ب: / 9838/

هاتف-فاكس: / 6133856/ 11 00963

جوال: 00971557195187

البريد الإلكتروني: addar@mamdouhadwan.net

الموقع الإلكتروني: addar.mamdouhadwan.net

twitter.com/AdwanPH fb.com/Adwan.Publishing.House

دفاتر

ممدوح حمادة

دفتر الحرب

قصص قصيرة

القصص

الإهداء

إلى أجمل طفلة في العالم

بطلة قصَّة (الرصاصة التي كادت تلطِّخ الشرفة بالدم).

إلى مدينة حلب التي جرت فيها القصَّة نفسها.

الجبنة الهولندية

إمعاناً في تعذيبه، وُضعت العلبة الخشبية للجبنة الهولندية على الطبق قبل أن يبدأ أيُّ نشاط آخر في تحضير طعام الفطور، وهذا يعني أن عليه الانتظار ريثما تصنع أمُّه الشاي وتقلي البيض وتملأ الصحون بالمكدوس واللبنة والزيتون والجبن من المرطبانات كافَّة التي تزخر بها أرجاء المطبخ المختلفة. لو أنها قامت بتقطيعها ووضعها في صحن لربَّما تمكَّن من اختلاس قطعة منها وجعل حليماته الذوقية المتحفِّزة تتمتَّع بنكهتها الخرافية، ولكن أمَّه تركت الجبنة في غلافها البلاستيكي متعمِّدةً على الأغلب، والذي لا يمكن فضُّه بسبب متانته إلا بسكِّين، وفي العلبة الخشبية التي رُسم عليها طائر ما، ربَّما كان البطريق، وإذا أراد فتحها وفضَّ الغلاف البلاستيكي فهذا يعني أن عليه إخراجها من

علبتها الخشبية المطاوَلة، وهذا يعني كذلك أن الجميع، وخاصَّةً أمَّه، سينتبهون إليه، وحتى لو لم ينتبه أحد إلى ذلك فإن الجميع سيعرفون بواقعة الاعتداء عندما يكتشفون أن الغلاف البلاستيكي مفتوح، وأن قطعة الجبن الكبيرة تلك أصغر من حجمها الطبيعي الذي يعرفه الجميع. وإذا انتبهوا إليه فإن صراخهم في أحسن الأحوال سيتعالى من كلِّ حدب وصوب داعياً إياه إلى رفع يده عن الجبن هذا إذا لم يتلقَّفه أحد بصفعة أو يرميه بفردة شحَّاطة! على كل الأحوال هو لم يكن يفكِّر في ذلك لمعرفته باستحالة الأمر، كان يكتفي بالمرابطة عند حافَّة طبق الألمنيوم جاعلاً عينيه تستمتعان بجمال علبة الجبنة الهولندية، ومنتظراً أن تبدأ الوليمة لكي ينقضَّ بدون رحمة على قطعها الشهية.

حضرت أمُّه ومعها سكِّين، فانبعث الأمل في نفسه، واعتقد لوهلة أن اللقاء مع الجبنة الهولندية أوشك على الحدوث، وسال لعابه قليلاً؛ ولكنه ازدرده بهدوء، غير أن حبَّات البندورة التي أحضرتها أخته جعلته يدرك أن عليه الانتظار أكثر، وبسبب ذلك فقد شعر ببعض الكراهية للبندورة، ثمَّ للخيار الذي حضر لاحقاً ليشارك البندورة الصحن. وبعد أن انتهت أمُّه من فرم البندورة والخيار كانت عيناه مثبَّتتين على السكِّين الذي ظلَّت تحمله بيدها وتنظر حولها كما لو أنها تبحث عن شيء، لا بدَّ من أنها تبحث عن صحن تقطِّع فيه الجبنة الهولندية، هكذا فكَّر هو بداخله، أمَّا أمُّه

فلم تكن تعرف شخصياً عمَّا كانت تبحث. نهضت وتوجَّهت إلى المطبخ تاركة إيَّاه يتابع صراع الانتظار المرير.

بدأت الصحون تحضر بالتتالي؛ فهذه أخته الثانية تحضر صحن المكدوس وتلحس أصابعها من الزيت، ثمَّ يحضر أخوه الأكبر حاملاً صحن الزيتون، وهكذا كانت الصحون تتكاثر على الطبق حتى ملأته تقريباً، ولم يكن ينتبه من الذي أحضر هذه الصحون، فقد كانت كل مشاعره وحواسه مركَّزة على علبة الجبنة الهولندية. وأخيراً حضرت مقلاة البيض التي لا تزال تصدر عنها أصوات القلي، لم يبقَ سوى إبريق الشاي الذي كان على وشك أن يجهز فوق نار بابور الكاز، ستحضره أمُّه، وريثما يقوم أحد بسكب الشاي في الكؤوس ستقوم هي بتقطيع الجبنة، ويبدأ الاحتفال!

هكذا فكَّر هو، ولكن أمَّه التي تركت إحدى أخواته جالسة القرفصاء قرب بابور الكاز منتظرة أن يغلي؛ خالفت توقُّعاته وأحضرت صحناً وسكِّيناً. كان من الواضح هذه المرَّة أن ذلك من أجل تقطيع الجبنة الهولندية، خاصَّة وأن أمَّه أخرجت القطعة من العلبة الخشبية وهمَّت بفضِّ الغلاف البلاستيكي. ولكن قرعاً عنيفاً على البوَّابة الحديدية للدار وجلبة وصراخاً اندلعا في الخارج جعل الجميع يقفزون ويُصابون بالرعب، وأمه تخرج لتفتح البوَّابة لتجد جارهم يحذِّرها وفي يديه حقيبة: «سقطت القنيطرة يا أم وليد... اتركوا كل شي والحقوا حالكن».

كلُّ ما يذكره أن أمَّه أخذت تدفعهم إلى الخارج بشكل هستيري للانضمام إلى قافلة الناس التي بدأت رحلة نزوحها للتوِّ، موصية الكبار منهم أن يمسكوا بأيدي الصغار. وبينما كان أخوه الأكبر يشدُّه من يده التفت إلى الخلف لعلَّه يرى علبة الجبنة الهولندية، ولكنه لم يشاهد سوى إبريق الشاي الذي كانت الرغوة تتدفَّق من تحت غطائه المتراقص بفعل الغليان دون أن يعيره أحدٌ أيَّ اهتمام.

بالرغم من جميع مصاعب طريق النزوح المرير، لم تفارق علبة الجبنة مخيَّلته. وكم ندم لأنه لم يفطن إلى أن يأخذها بيده قبل أن يخرج! وتمنَّى لو يتمكَّن من العودة لأخذها، وهي لم تفارق مخيَّلته يوماً بعد ذلك؛ ظلَّ دائماً يبحث عن جبنة طعمها يشبه طعم الجبنة الهولندية، ولكنه لم يعثر على مثلها أبداً، لدرجة أنه في إحدى المرَّات بينما كان يقف على الرصيف في بلد النزوح التي لم يشاهد فيها جبنة هولندية، بل ولم يلتقِ أحداً قد شاهدها أو سمع بها، كانت تمرُّ دراجة هوائية يركبها اثنان، ودار بينهما حوار لم يسمع هو منه إلا آخره، حيث كان الراكب الذي على المقعد الخلفي يقول: «يا أخي من لما جاء النازحون الواحد ما عاد استرجى يشلح شحَّاطته برا».

فوجد نفسه يصيح به مقهوراً، ولا يدري إن كان ذاك قد سمعه أم لا: «نحن نأكل الجبنة الهولندية التي لم تسمع بها، نحن لا نسرق الشحَّاطات».

لم يتمكَّن بعد ذلك من تذوُّق ذلك الطعم الأسطوري كما يحلو له وصفه الآن، وعندما سأل أمَّه عن مصدر تلك الجبنة أعربت له عن جهلها بذلك. أمَّا أبوه الذي كان يحضر لهم تلك الجبنة الهولندية فلم يعد من الحرب؛ قيل إنه أُسر وقيل إنه قُتل، وفي كلِّ الأحوال لم يعد له وجود فوق الأرض على الأغلب. ولكن أكثر حقده بسبب حرمانه من تلك الجبنة في ذلك اليوم المشؤوم انصبَّ على الناطق العسكري الذي صرَّح عبر أثير إذاعة دمشق بأن القنيطرة سقطت، حيث سمع الناس بعد ذلك يتهامسون بأن المدينة لم تسقط إلا بعد يومين من تصريح الناطق العسكري، وعبثاً حاول إيجاد مبرِّر لعجلة الناطق العسكري في أمره، فحسب العادة يقوم الناطق العسكريُّ عند حديثه عن الانتصارات بالمبالغة فيها، أو عن الخسائر بالتقليل منها، أمَّا أن يعلن عن سقوط مدينة قبل يومين من سقوطها فهذا ما لم يفهمه:

- «الوغد! لو أنه أجَّل الإعلان عن سقوط المدينة ساعتين فقط، لما بقيت نغصة الجبنة الهولندية في القلب إلى الأبد».

كان يقول ذلك في كلِّ مرَّة يعجز فيها عن إيجاد المبرِّر لذلك التصريح الأخرق، ثمَّ يردف:

- «تبّاً له! هو ناطق باسم من؟».

أنت منذ اليوم لي
يا وطني

كان يا ما كان في يوم من حزيران عام 1967، كان هناك خلفنا بيتٌ جديدٌ مشرفٌ على البساتين، وكانت هناك بساتين، ومدرسةٌ بالكاد بدأنا نعقد مع جدرانها ومقاعدها وساحتها صداقةً حميمة. كان هناك أصدقاءُ وعصافيرُ وحصان، وأهمُّ من كلِّ ذلك؛ كانت هناك مجموعاتٌ من سكّان الجولان تجتاز الحرش باتِّجاه الشرق، بعضهم يجرُّ حماراً عليه فراشٌ ولحافٌ وعدَّة وسادات، وبعضهم خرج بلباسه الذي عليه، العبارة التي كان الكثيرون يستخدمونها للدلالة على سوء الحال في ذلك الوقت، وكنت أنا تلميذ الصفِّ الثاني الذي نجح إلى الصفِّ الثالث، من بين أولئك الذين خرجوا بلباسهم الذي عليهم. وفي الطريق كان ثمَّة حمارٌ مقطوعُ الرأس،

قيل إن قذيفةً طائشةً لدبَّابة قد أصابتْه في رقبته وتركته مرمياً على جانبه بلا رأس. ولا تزال بعض الأمتعة التي تركها أصحابه محزمة على ظهره. وكانت فردة حذاء هنا، وكعب حذاء نسائي هناك، وحقيبة جلدية بُنّيّة اللون بعض زواياها مهترئة تخلّى عنها أصحابها. وعلى جذع شجرة كانت امرأة سمينة في الأربعينات تقريباً تسند ظهرها لاهثةً في محاولة لالتقاط أنفاسها، وعلى بعد خمسين متراً إلى الأمام رجلٌ ينتظرها صامتاً مغلوباً على أمره. وعلى حجر صوّان أبيض بقعةٌ من الدم اليابس من غير المعروف ممَّن ومتى نزفت، وليس بعيداً عنها آثار حذاء ملوَّث بالدم ترك قرب حجر صوَّان آخر. وكان خوفٌ وقلقٌ؛ امرأةٌ تسأل عن طفلها، ورجلٌ يصرخ على أمِّه العجوز التي يعيق تثاقلها حركتهم، ورجل يسير بصمت والدموع تنهمر من عينيه مدرارة. كان هناك الكثير الكثير ممّا يبعث على الشجن، وبين كُلّ هؤلاء جميعاً كان هناك رجل يسير قربنا يحمل في يده راديو ترانزستور يعمل بدون انقطاع، وكان مع كلِّ بلاغ يطلقه الناطق العسكري سن علبته هذه، عن انتصاراتنا على خطوط النار يطلب الصمت من الجميع قائلاً:

- «ولا صوت... ولا صوت... الناطق العسكريُّ يتحدَّث».

كان ذلك الرجل، على ما يبدو، لا يزال يأمل معجزة تقلب الأمور رأساً على عقب، ومع أننا كنا هائمين على وجوهنا باتِّجاه الشرق، فإن هذا الرجل كان يريد أن يصدِّق كلَّ ما كان يسمعه من

أصوات تخرج من علبته الترانزستور، فكان مع كلّ خرطةٍ من خرطات الناطق العسكري يصيح:

- «الله أكبر... الله أكبر».

ومن بين ما كان ينبعث من ذلك الجهاز أغنية ربَّما لدلال الشمالي أو مغنِّيَة أخرى من ذلك الزمن، كانت تنطلق بعد كلِّ تصريح للناطق العسكري تقريباً، وتقول كلماتها: "عبّيلي الجعبة خرطوش وناولني هالبارودة... بيكلِّفني خمس قروش البيقرب صوب حدودي". وأغنية أخرى يمكن القول إنه بدونها لا تكتمل المهزلة، وتقول كلماتها: "أنت منذ اليوم لي يا وطني". ولا داعي للقول طبعاً إنني منذ ذلك اليوم بالتحديد لم أرَ وطني، ومنذ ذلك اليوم أيضاً أكره الأغاني الوطنية عندما تنطلق من المذياع، وأشعر فيها بنذير شؤم.

شظايا

بعد كلٍّ غارة يقوم به طيران العدو، كنا أوَّل من يحضر إلى المنطقة التي قُصفت وإلى محيطها، ليس لإنقاذ الجرحى أو تفقد الخسائر كبقية القادمين، فنحن لم نكن نهتم بذلك، كان هدفنا الحصول على أكبر كمِّية ممكنة من الشظايا التي كان يحمل كلٌّ منا جعبةً مليئةً منها جمعها من المرَّات السابقةَ التي تمَّ فيها قصف مواقع مختلفة أو ربحها في رهانات "الطرَّة والنقش" التي كنا نمارسها في المدرسة في أثناء فترات الفرص بين الدروس وفي الحارة حتى حلول المساء، ولهذا فالقصف الذي يثير الرعب في نفوس الجميع ويتسبَّب في إثارة أعمدة الدخان وغيوم الغبار ويكسر زجاج نوافذنا ويوفِّر لـ"زمُّور الخطر" فرصة للعمل، كان بالنسبة إلينا، بعد انقشاع حالة الخوف وتلاشي أصوات الطائرات،

مصدراً للفرح، حيث كنا ننطلق راكضين بكلِّ ما أوتينا من سرعة إلى مكان القصف لنجمع ما نستطيع من الشظايا.

كان كلٌّ من نبيل وتيسير أوفرنا حظّاً في جمع الشظايا، لأن كلّاً منهما كان يملك دراجة هوائية، ولذلك فقد كانوا يصلون إلى موقع القصف قبلنا بوقت لا بأس به ممَّا يسمح لهم بانتقاء أفضل الشظايا، فليست كلُّ الشظايا بالمستوى نفسه لدى لاعبي "الطرَّة والنقش"، كانت هناك شظايا كبيرة تصل إلى حجم راحة الكفِّ أحياناً وربَّما أكبر، وبعضها بحجم الإصبع، هذه كانت لها قيمة خاصَّة لدينا، وكان واحدنا عندما يشرف على الإفلاس يستبدل الشظية التي بحجم الكفِّ بخمس شظايا بحجم الإصبع، حتى أن بعضنا كان يسمِّيها (خمسة أو عشرة) مقارناً إيَّاها بالخمسة والعشرة قروش.

نبيل وتيسير كانا دائماً محطَّ حسد الجميع. وأعتقد جازماً أن قسماً كبيراً منا كان يكرههما ويعتبرهما سبب حرماننا من فرصة الحصول على شظايا قيِّمة بسبب امتلاكهما للدرَّاجتين. وحدث أكثر من مرَّة أن قام مجهول بثقب إطار درَّاجة أحدهما لكي لا يتمكَّن من الوصول قبلنا إلى المكان، ولا أنكر أنني في إحدى المرَّات كنت ذلك المجهول، حيث قمت باستغلال فرصة اختباء تيسير والجميع المنشغلين من داخل مخابئهم بمراقبة القنابل التي كانت تُلقي بها الطائرات والتي تهيّأ لنا أنها ستسقط علينا، وقمت

بثقب إطار الدرَّاجة، لم يشعر تيسير بذلك إلا بعد أن قطع قرابة مئة متر، ولذلك ترك درَّاجته وركض معنا. وقد كان لذلك نتائج جيِّدة، فقد تمكَّنا من جمع شظايا جديرة بالاحترام وقتها.

آخر مرَّة ذهبنا فيها لجمع الشظايا كانت بعد قصف موقع يبعد عن المدينة أكثر من عشرة كيلومترات، ولذلك فقد سَبَقَنا نبيل وتيسير بمسافة طويلة؛ فعندما كنا ما نزال في منتصف الطريق إلى الموقع كان تيسير ونبيل عائدين وخلف كلٍّ منهما على المقعد الخلفي للدرَّاجة خُرج مليء بالشظايا، وكان نبيل في حالة من التباهي ينساب بدرَّاجته التي ترك مقودها حُرَّاً، رافعاً بكلتا يديه إلى فوق رأسه قنبلةً لم تنفجرْ. توقَّف قربنا وناولها لتيسير الذي توقَّف هو الآخر، قائلاً له:

- «دورك».

ثمَّ روى لنا والفرح يقطر من جميع مساماته، القصَّة التي تتلخَّص في أنهما، هو وتيسير، عثرا على القنبلة معاً، وأنهما سيأخذانها إلى البيت وسيقومان باستضافتها بالتناوب، ويبدأ ذلك بمن يربح الرهان في "الطرَّة والنقش" التي طلبا منا أن نكون الحكَّام والشهود فيها. وقد بحثنا وقتها عن قطعة نقدية في جيوبنا فلم نجدْ؛ ولذلك قمنا بإجراء قرعة أخرى عبر إخفاء حصاة في إحدى اليدين يفوز فيها من يحزر في أيِّ يدٍ هي، وقد فاز فيها تيسير بتواطؤ من هاني الذي غمز له بعينه اليسرى، فأدرك تيسير في أيِّ

يدٍ هي، وفاز في الرهان الذي تقرَّر بعده أن تبيت القنبلة ليلتها الأولى عنده. سمح لنا تيسير ونبيل بالإمساك بتلك القنبلة؛ فكنا نتناقلها كلاعبي فريق لكرة القدم فازوا بالبطولة وأخذوا يتناقلون كأس البطولة بين أيديهم، وكم شعرت بالسعادة وأنا أحتضنها! وتمنَّيت أن تبقى بين يدي أكثر؛ ولكن تيسير سحبها من بين يديَّ كما لو أنه كان يخشى أن تقع حبيبته في هواي، بينما كان نبيل لا يزال مستمراً في شرح المشاعر التي انتابته في اللحظات الأولى التي عثر فيها على القنبلة.

تابع الاثنان طريقهما على الدرَّاجتين، وكان أحدهما يغنِّي أغنية لم أتمكَّن من سماع كلماتها جيداً، وتابعنا نحن الركض إلى موقع القصف، ولم تمضِ لحظات قليلة على افتراقنا حين سمعنا خلفنا دويَّ انفجار رهيب جعلنا نتوقَّف لاهثين لالتقاط الأنفاس ونلتفت إلى الخلف بحالة تشوبها الصدمة؛ حيث شاهدنا غيمة من الدخان كانت في طريقها إلى التبدُّد، ولم نكن في حاجة إلى بذل الكثير من التفكير لندرك أن الانفجار كان سببه تلك القنبلة التي كان كلٌّ منا قبل لحظات فقط يتمنَّى أن يضعها تحت إبطه ويولِّي بها الأدبار كما لو أنه يخطف أميرة من قصر أبيها.

ركضنا مسرعين إلى مكان الانفجار، ولكننا في هذه المرَّة لم نجمع الشظايا، كانت المرة الأولى في تلك الحرب التي جمعنا فيها الأشلاء.

أجمل مدينة

كانت خيمتنا هي الخيمة الوحيدة التي تبقى شعلة قنديلها المعلَّق على العمود الذي يتوسَّطها متوقِّدة حتى الصباح. لم يكن مبعث ذلك حبُّنا للسهر، وإنما لأننا نغفو دون أن نطفئ القنديل، فحين نندسُّ في أسرَّتنا يكون النقاش البيزنطي الذي بدأ في الصباح بين أيمن وإبراهيم لا يزال على أشدِّه، وبما أنني قد اعتدت على مثل هذا الأمر الذي أصبح روتينياً فقد كنت أغفو في ذروة الجدل بينهما، ولذلك لم أكن أطفئ المصباح. أما هما فقد كانا يستمرَّان في الجدل حتى بعد أن يغمض كلٌّ منهما جفنيه، حيث أن الحديث بينهما يستمرُّ في حالة اللاوعي، وكثيراً ما كان أحدهما يبرطم بعبارات غير مترابطة ظنّاً منه أن النقاش لا يزال مستمرَّاً بينما كان الآخر يغطُّ في نوم عميق. وحتى بعد الحريق الذي شبَّ في

خيمتنا ذات مرَّة وكاد يودي بحياتنا نحن الثلاثة بسبب بقاء ذلك القنديل مضاءً؛ فإن عادتنا لم تتغيَّر، وكأن الحريق شبَّ في خيمة أخرى وفي مكان آخر في العالم.

لم يكن النقاش بينهما يحمل مضموناً محدَّداً، فأحياناً يتعلَّق الأمر بالسياسة، وأحياناً بالأدب أو بالفن، وأحياناً أخرى ينحدر إلى السراويل، بما فيها الداخلية، ويمكن القول إن أيَّ موضوع لم يكن يُستثنى من تلك النقاشات. إلا أن المضامين وإن كثرت فإن المحور كان واحداً، وكلُّ تلك المضامين كانت تتعلَّق به؛ فأيمن كان يؤكِّد أن حلب أفضل مدينة في العالم، بينما ينفي إبراهيم ذلك ويؤكِّد أن حمص هي المدينة الأفضل.

كان من المستحيل الخروج عن هذا المحور، وكأن العالم كلَّه يتكوَّن من مملكتين، حمص وحلب. ذات مرَّة، وقد كان يسود صمت نادر، قال أيمن محدِّثاً نفسه وكأنه يتحرَّش بإبراهيم:

- «لا يوجد في الكون أجمل من نساء حلب».

* «فعلاً». وافقه إبراهيم بخبث. ثمَّ أردف: «ما عدا نساء حمص، فهنَّ أجمل».

لم يعجب الجواب أيمن، فبيَّن له:

- «لأنك لم ترَ نساء حلب».

* «كنت في الحديقة العامَّة في حلب ذات مرَّة و رأيتهن، وليتني لم أرَ».

قال إبراهيم بلهجة ازدراء وكأنه رأى قروداً ولم يرَ نساء، فأجابه أيمن بلهجة لا تقلُّ ازدراء:

- «لا بدَّ من أن اللواتي رأيتهن في الحديقة العامَّة كنَّ نساء حمصيات في رحلة إلى حلب».

* «لقد سمعتهنَّ يتحدَّثن اللهجة الحلبية».

قال إبراهيم قاطعاً الشك باليقين. فأجابه أيمن الذي لا يستسلم أبداً:

- «يحاولن تقليد نساء حلب».

دام النقاش طويلاً دون أن يصل إلى نتيجة، وكما هي العادة فعندما يضجر أحد الطرفين من الجدل يلجأ إليَّ كحكم، ولكنه في قرارة نفسه يريدني مثل قاضي الزور، لا يهمُّه رأيي تحديداً بقدر ما يبغي تأييدي لموقفه. فيقول مثلاً:

- «خيُّو أبو حميد، أنت بتفهم بالنسوان. شو رأيك؟ نسوان حلب أجمل ولا نسوان حمص؟».

لقد كانا يعرفان جيِّداً أنني لا أفهم في مجال النساء أبداً، وأنني شعرت نحو حنان بالحب وهي في الصف العاشر وأنا في الحادي عشر، ولم أتجرَّأ على البوح بحبِّي لها إلا حين أصبحت في البكالوريا، وسُحبت إلى الجيش قبل أن أسمع ردَّها. ولذلك فإن شهادته القاطعة على (فهمي بالنسوان) لم تكن أكثر من رشوة يستميلني بها إلى جانبه، في بداية الأمر كنت أؤيِّد السائل من باب

المجاملة فيشمت بغريمه الذي لم يكن يقرُّ بحكمي الجائر ويبقى في حالة حرب معي إلى أن نبدأ بإعداد وجبة الطعام القادمة، ولكنني مع مرور الزمن أخذت أفهم دوافعهما عندما يسألانني؛ فلم تعد الحيلة تنطلي عليّ، ولذلك فقد كنت أصدر حكماً وسطاً محاولاً إرضاء الطرفين. فأقول مثلاً:

- «يا أخي كلُّ النسوان خير وبركة».

ممّا يثير احتجاج الطرفين، فيجيبان معاً:

- «روح عنا يا! أنت شو بيفهّمك؟».

لم يكن هذا الردُّ من قبلهما يزعجني أبداً، بل على العكس؛ فقد كان يبعث الراحة في نفسي لأن هذا يعني نهاية الجدال.

في مساء أحد أيّام الخميس اجتمعنا من عدَّة خيام وسهرنا حتى ساعات الصباح الأولى طمعاً منا بيوم الجمعة الذي يخوّلنا النوم حتى ساعات الظهيرة. ولكن حسابات الحقل كما يقولون لم توافق حسابات البيدر؛ ففي الساعة الثامنة من صباح يوم الجمعة نهض أيمن وخرج إلى البرّية لقضاء حاجة معتادة، غير أنه بعد عودته لم يتمكَّن من النوم، فأخرج من حقيبته الموجودة تحت السرير دفتر رسم كان عادة يرسم على صفحاته نساء عاريات ولكن في غاية القبح، ولو أن النساء في الواقع كُنَّ شبيهات بتلك النسوة التي يرسمهنَّ أيمن في دفتره لما تكاثر الجنس البشري أبداً! فمن المستحيل أن يفكّر أيُّ رجل في امرأة تشبه نساء أيمن أو يشتهيها.

ولكن أيمن كان بالرغم من رداءة رسوماته فنّان الكتيبة، حيث لا يرقى أحدنا إلى نصف مستواه، ومع أن رسومات إبراهيم التي بدأ يرسمها بدافع الغيرة كانت أجمل من رسومات أيمن بكثير إلا أنها لم تكن في مستوى رسومات أيمن، ذلك أن إبراهيم كان يشفّها من مجلّة ما لدرجة لا يمكن إخفاؤها، ممّا كان يفقدها قيمتها.

أخذ أيمن يرسم شيئاً ما في دفتر الرسم بينما كنا نياماً، وبما أنه، كما ذكرت، لم يكن رسّاماً ماهراً، فقد كان يرسم الخطّ ويمحوه عشرات المرّات قبل أن يرضخ للأمر الواقع ويرضى بما فعله، وهنا تكمن المشكلة؛ فالطاولة الخشبية المصنوعة من ألواح منتزعة من صناديق الذخيرة التالفة والتي كانت تتوسّط خيمتنا كان لها من العمر كما يتهيّأ لي ما يقارب العشرين عاماً، هذا ما تشير إليه بقايا كتابات قديمة على سطحها، ولذلك فقد كانت مخلّعة الأوصال تصدر صريراً مزعجاً عندما يحرّكها أحدهم، ولو أدنى حركة. وبما أن أيمن كان يتّكئ بكلّ ثقله على الممحاة لكي يمحو خطوطه الفاشلة، فإن الطاولة كانت تجعر جعيراً حادّاً، تجاهلناه في البداية، ثمّ أرغمنا على الاستيقاظ من نومنا.

- «ماذا تسخّم؟». صرخ إبراهيم مستاءً.

فأجابه أيمن ببرودة:

* «أرسم صورة أبي الطيّب المتنبّي».

ومن حُسن حظّ أيمن أن المتنبّي قُتل منذ قرون بعيدة، فلو أنه

رأى الصورة التي يرسمه عليها أيمن لشنَّع به أكثر ممَّا شنَّع بكافور الإخشيدي! ولكن هذا لم يكن يهمُّ إبراهيم الذي أفسد عليه أيمن نومه، فقال له بازدراء: «وما علاقتك بالمتنبِّي؟».

* «شاعر حلبي».

أجاب أيمن مستغرباً السؤال، ولكن ليس إبراهيم ذلك الرجل الذي تقنعه إجابات أيمن:

- «المتنبِّي من البصرة، ما علاقة حلب بالمتنبِّي؟».

* «عاش في حلب، وأشعاره تنتمي إلى حلب».

- «أهل حلب بالذات لا يحقُّ لهم الحديث عن المتنبِّي، لقد عانى منكم الأمرَّين، عاش بينكم طويلاً ولم تتمكَّنوا من إكرامه لأنكم لا تعرفون قيمة الشعر ولا الشعراء».

* «قلبه كان في حلب».

- «قلبه كان في حمص؛ لقد كان يريد أن يعيِّنه سيف الدولة والياً على حمص».

* «إذا فأنت تقرُّ أن حمص كانت تابعة لحلب؟».

هذا السؤال كان بمثابة الثغرة التي وجد أيمن نقطة يخترق عبرها تحصينات إبراهيم، ولكن إبراهيم الذي كان يعرف هذه الحقيقة المرَّة جيِّداً لم يكن يعدم الوسيلة للتخلُّص من هذا المأزق. فأجابه ببساطة وبرودة أعصاب: «حقناً للدماء».

* «دماء من؟».

سأله أيمن بحذر، فأجابه إبرهيم وكأنه يتحدَّث عن أمر بدهي:

- «دماء حلب. نعرف أنكم تحبُّون الكبرة ولو على الخازوق، ولو دخلنا معكم في معركة من أجل أمر تافه كهذا لحوَّلنا أمَّهاتكم إلى ثكالى وزوجاتكم إلى أرامل وأولادكم إلى أيتام، ما الداعي إلى ذلك؟ أبقيناكم على قيد الحياة، اعمل منيح وكبّ بالبحر».

هبَّ أيمن من مكانه كمن صُفع على حين غَرَّة، وتلفَّت حوله باحثاً عن الدهشة في المكان لهذا الكلام الذي قيل، وربَّما باحثاً عن سلاح يقضي به على مستقبل إبراهيم نهائياً، ثمَّ خمد قليلاً وتوجَّه إليَّ بالسؤال كالعادة:

- «أبو حميد، بشرفك، من الذي يستطيع تدمير الآخر؟ حمص؟ أم حلب؟».

* «لا حمص ولا حلب».

أجبت كعادتي محاولاً التوفيق بين الطرفين. فأجاب الاثنان كعادتهما على الفور:

- «روح عنا يا! أنت شو بيفهّمك؟».

بهذه العبارة أُقفل الجدال كما هي العادة، ولكن إلى حين. فبعد أن غسلت وجهي حضَّرت الشاي لتناول الفطور وجلسنا نحن الثلاثة حول تلك الطاولة العجوز إيَّاها بعد أن أخرج كلٌّ

منا ما في جعبته من طعام، مدَّ إبراهيم يده إلى صحن الشنكليش وتناول لقمة منه تقلّصت على إثرها ملامح وجهه، وتساءل بقرف غير معلن:

- «شغل وين؟».

* «شغل حلب».

أجاب أيمن بحذره المعتاد بعد مثل هذه الأسئلة.

- «أهذا شنكليش وشنكليش حمص شنكليش؟».

تساءل إبراهيم بلهجة تدلُّ على الفرق الشاسع بين الجودة العالية لشنكليش حمص والنوعية الرديئة لشنكليش حلب، فما كان من أيمن إلا أن صرخ معلنا أن السيل قد بلغ الزبى:

- «لا... في كلِّ شيء يمكن أن أسمح لك بالتطاول إلا في مجال الطعام، المطبخ الحلبي مشهود له على الساحة الدولية».

* «وهل عُقدت جلسة خاصة للمطبخ الحلبي في الأمم المتَّحدة؟».

قال إبراهيم ساخراً، فأجابه أيمن:

- «لماذا الجدل؟ الماء يكذب الغطَّاس. أنا أطبخ وأنت تطبخ و أبو حميد الحكم، وهو من سيقرِّر من منا يطبخ أفضل».

* «موافق».

أجاب إبراهيم على الفور. وبما أن الأمر اتخذ طابع الجد

فقد قرَّرت أن أكون حكماً جدِّياً هذه المرَّة، فرفضت التحكيم إلا بشرط.

- «ما هو الشرط؟».

تساءل الاثنان بلطف عندما شعرا بقيمة الحكم بعد تمرُّدي هذا. فقلت:

* «يوافق الطرفان على النتيجة دون اتهامي بعدم الفهم».

وافق الاثنان، فأجبرتهما على كتابة تعهُّد خطِّي بذلك واستعمال بصمة الإبهام بدلاً من التوقيع منعاً للتنكُّر لاحقاً؛ فهما عادة يستخدمان تواقيع غير حقيقية على مثل هذه التعهُّدات، ففعلا ما أردت.

بعد ذلك توجَّه الطرفان إلى دكَّان أبي محمود عند المفرق لشراء لوازم الغداء، ثم انزوى كلٌّ منهما في مكان ما لتحضير الطعام مختفياً عن الآخر لكي يبقى الأمر سرَّاً، فلا يعرف أحدهما ما يحضره الآخر. وكيلا يسرق أحدهما من الآخر سرَّ المهنة كما قالا.

لم تكن دكَّان أبي محمود دكَّاناً بكلِّ معنى الكلمة؛ وإنما كانت شبه مطعم وشبه دكَّان. فقد كانت زوجته تقلي له كمِّية من الفلافل والبطاطا والباذنجان وتسلق كمية من البيض تلفُّها على شكل (سندوتش) في البيت، ثمَّ يبيعها أبو محمود للجنود والعابرين جاهزة. وفيما عدا ذلك كانت الدكَّان تحتوي على أهم المواد التي يمكن أن يحتاجها الجنود؛ مثل السكَّر والشاي، وعدد محدود من

المعلَّبات، إضافة إلى صندوقين أو ثلاثة من الخضروات، وكمِّية من بيض الدجاج البلدي.

من بين جميع محتويات الدكَّان لم يجد إبراهيم وأيمن غير البيض والبندورة أشياء يمكن أن تكون صالحة للطبخ. فاشترى كلٌّ منهما كمِّية بشكل سرِّي كيلا يعرف الخصم ماذا يحضر، وبطبيعة الحال فإن الاثنين قاما بتحضير البيض والبندورة أي «شظ مظ». وفي تمام الساعة الثانية ظهراً قام كل منهما بحركات مفعمة بالتحدي بوضع إنتاجهما المطبخي فوق سطح الطاولة العجوز، ثم قاما باستدعائي بعد ذلك للنطق بالحكم.

كنت أشعر أن دقات قلب كل منهما قد تسارعت خوفاً من أن يكون حكمي جائراً بالنسبة إليه، وفي الوقت نفسه فقد كانت عينا كلٍّ منهما وملامح وجهيهما تطفح بثقة مصطنعة.

جلست لكي أبدأ عملي كقاضٍ، فقام أيمن بسكب صحن لي وصحن له، ثم قام إبراهيم بفعل ذلك، ولكننا ما إن وضعنا ملاعقنا في الصحون حتى تعالى الصراخ من الخارج:

- «طيران! طيران!».

ترك كلٌّ منا ملعقته في الصحن وهبَّ إلى سلاحه، ثم توجهنا كلٌّ إلى حفرته التي كان قد جهزها سابقاً.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يحلق فيها الطيران فوقنا، فقد كان يفعل ذلك كثيراً، ولكنه لم يقصفنا من قبل. كان دائماً

يقصف أهدافاً كانت بعيدة نسبياً عنا، الأمر الذي جعلنا نشعر بالاطمئنان، ونزيح تلك السقوف التي وضعناها فوق الحفر منعاً لسقوط القنابل العنقودية في الحفر.

ثلاث طائرات عبرت من فوقنا ورمت واحدة منها صاروخين باتجاهنا، ثم اختفت تاركة خلفها غيمة كبيرة من التراب كانت تحجب الرؤيا.

كانت حفرة أيمن تقع خلف صخرة على بعد أمتار عن يميني، أمّا حفرة إبراهيم فتقع خلف تلّة ترابية على بعد أمتار عن يساري، وقد كانا دائماً، عندما ينتهي خطر الطيران أو المدفعية، يتراشقان بالحصى في محاولة لكسر الملل وربّما لكسر الخوف الغريزي الذي يسكن اللاوعي لدى كلّ كائن حي. وبما أن المسافة بينهما كانت بعيدة فإن معظم الحصى كان يتساقط على خوذتي، وكان ذلك - رغم الإزعاج الذي يسبّبه لي - يشعرني بالأمان، فكنت أصمت. حتى أنني في بعض الأحيان عندما يتناسون ذلك لسبب ما كنت أقوم بإثارة الموضوع عن قصد: فأرمي حصاة في اتجاه أيمن وأخرى في اتجاه إبراهيم مذكّراً إياهما بالأمر، فيبدآن التراشق.

بعد أن فركت عيني من الغبار الذي ملأهما، وسعلت بحدّة مخلّصاً رئتيّ من التراب الذي دخلهما، وربّما من الدخان أو غاز سام، لا أدري! جلست أنتظر بدء التراشق بالحصى بينهما، فلم يفعلا. فخمّنت أن تفكيرهما مشغول بنتيجة مسابقة البيض

والبندورة التي تنتظرنا عند عودتنا إلى الخيمة، فقمت بقذف حصاة باتجاه أيمن وأخرى باتجاه إبراهيم، ولكن أحداً لم يبدِ أي ردَّة فعل. ففعلت ذلك مرَّة أخرى ظناً مني أنني ربَّما أكون قد أخطأت الهدف، ولكن بدون جدوى. وعندها خالجني شعور بالقلق، فندهت باتجاه أيمن:

- «أيمن... أيمن... أبو شلاش».

ولكنني لم أتلقَّ جواباً، فالتفتُّ ناحية إبراهيم وندهت:

- «إبراهيم... أبو فارس».

وفي هذه المرَّة لم أتلقَّ جواباً أيضاً، ما جعلني أشعر بحالة من التوتُّر والقلق. فخرجت من حفرتي وتوجَّهت إلى حفرة أيمن التي كانت أقرب إلى حفرتي، فوجدته مستنداً بظهره إلى جدار الحفرة وقد انقلبت خوذته على وجهه واستندت بحافتها على أنفه، ومن تحتها كان يسيل خيط من الدم. فصرخت: «أيمن! أيمن!».

ولكن أيمن كان في ذلك الوقت لا يسمعني، وغير قادر على الجواب.

توجَّهت فوراً إلى حفرة إبراهيم لإطلاعه على الأمر، فوجدته منكبّاً بنصفه العلوي فوق حافَّة الحفرة وكأنه يحاول الخروج. ظننته مصاباً ورفعته لكي أسحبه من الحفرة، فوجدت تحت صدره بقعة حمراء لزجة تشبَّع بها التراب، وأدركت أن إبراهيم لم يعد في حاجة إلى مساعدتي.

عدت إلى الخيمة بعد انتهاء كل شيء، وكانت الصحون لا تزال في أماكنها فوق سطح الطاولة العجوز، فقمت بخلطها جميعها في صحن واحد، وأعلنت النتيجة محدِّثاً نفسي:

- «حمص وحلب أجمل مدينة في العالم».

الرصاصة التي كادت تلطِّخ الشرفة بالدم

مع أن التدريب على الجاهزية القتالية كان أمراً مدرجاً في برنامج دورتنا، إلا أننا كنا نشعر عندما تنطلق صافرة الضابط المناوب معلنة حالة الاستنفار، أن الضابط الذي يشعر بالملل بسبب عدم ذهابه إلى البيت، لديه رغبة في التسلية من أجل طرد الملل، أكثر من رغبته في اختبار جاهزيَّتنا القتالية، وأنا أتفهَّم رغبة الضابط في التسلية تماماً، فنحن الذين كنا نعاني لم نكن نتمالك أنفسنا من الضحك عندما نشاهد بعضنا بعضاً، فكلٌّ منا يحمل على كتفه فراشه ممسكاً به بإحدى يديه، وباليد الثانية يحاول تثبيت لباس الميدان الكامل الذي يزنِّره، وبما أن الكثيرين منا كانوا قد نحفوا عدَّة كيلوغرامات منذ بداية الدورة، فإنهم كانوا يعانون

من مشكلة أخرى وكانوا يتمنُّون لو كانت لهم يد ثالثة تمسك بحزام البنطال، حيث أصبحت ثيابهم واسعة جدَّاً عليهم، وعلى الرغم من حرص هؤلاء على بذل أقصى جهودهم لمنع البناطيل من السقوط في أثناء الركض، إلا أن بعض البناطيل كانت أحياناً تتغلَّب على رغبة أصحابها، فكانت تسقط كاشفة ما لا يرغب الشخص عادة بكشفه، ومن هنا فقد كان جميع عناصر فصيلتنا، الفصيلة الخامسة، يعرفون أن هارون يلبس تحت بنطاله كلسوناً شرعياً منقَّطاً، فإذا كنا نحن الذين نتعرَّض للمعاناة نضحك، فما بالك بالضابط المناوب بذلك الذي يلعب دور المتفرِّج؟!

اليوم لم تكن صافرة الضابط المناوب استثناء لما سبقها من صافرات، فعند سماعنا لها قام كلٌّ منا بارتداء لباس الميدان الكامل على عجل؛ الكمامة ومزودة الطعام على الكتفين، والمطرة وجعبة المخازن والمعول الفردي على الحزام، ولفَّ فراشه وبطانياته على شكل أسطوانة حملها على أحد كتفيه، ثم علَّق كلٌّ بندقيته وخرج راكضاً، وأنا في الحقيقة حتى الآن لا أدري مبرِّر حمل الفراش، ففي المناورات كنا نكتفي بلفِّ بطانيتين على شكل نير نحمله على الكتف، كنا عند المبيت نضع واحدة تحتنا والثانية فوقنا ونتوسَّد الحذاء وننام، من المستحيل أن يحمل المحارب فراشه في الحرب إلا إذا كان الانتحار مطلوباً منه، ولهذا فإنني أعتقد أن الضبَّاط كانوا يلزموننا بحمل الفراش من أجل زيادة جرعة المعاناة

فقط لا غير، وبكلام آخر لكي نتسقّى كما الفولاذ ونتعوَّد على تحمُّل المشاق. ولكن في هذه المرَّة صرخ بنا الضابط المناوب أن يرمي كلٌّ منا فراشه ففعلنا وتابعنا الركض إلى السيَّارات المصطفَّة في الساحة، كما نفعل في كلِّ مرة، وكان هذا الفرق الأوَّل بين هذه المرَّة والمرَّات السابقة، تخلُّصنا من حمل الفراش. عند السيَّارات كان أمين مستودع الأسلحة والذخيرة يقف مع عنصر من عناصره وقد وضع صندوق ذخيرة على الأرض وأخذ يغرف منه الرصاص بحفنتيه ويناول كلّاً منا كمِّية منه على عجل، البعض حصل على عشر رصاصات، البعض على خمس عشرة.. وقليلون هم الذين حصلوا على مخزن كامل، هذا الفرق الثاني بين هذه المرَّة والمرَّات السابقة، فهذه أوَّل مرَّة يوزِّعون فيها علينا ذخيرة حيَّة. أمَّا الفرق الثالث فهو أن السيَّارات تحرَّكت، وهي عادة ما تبقى واقفة ونؤمر بالعودة إلى مهاجعنا بعد أن نصعد إليها، حيث يكون الضابط قد تأكَّد من جاهزيَّتنا.

السيَّارات لم تتحرَّك فحسب، بل خرجت من المعسكر أيضاً، وتوجَّهت نحو المدينة، كلُّ ما يحدث يشير إلى أنه سيزجُّ بنا في معركة، الملامح الجدِّية على الوجه المكفهرِّ للضابط المناوب الذي لم يضحك لسقوط بنطال هارون هذه المرَّة، والذخيرة الحيَّة التي وُزِّعت علينا، والتوجُّه إلى المدينة بلباس الميدان الكامل. مجرَّد ذكر الكلمة يبعث على الرهبة، فما بالك عندما

يشاهدنا الناس في المدينة به! أدركنا جميعاً أن شيئاً جدِّياً ينتظرنا. سيطر الخوف على البعض، فمعظمنا لا يزال مراهقاً، صحيح أننا تجاوزنا سِنَّ الرشد كما يطلقون عليه، ولكن ذلك على الورق فقط، أمَّا الحقيقة فإن الغالبية لم يصبحوا رجالاً بعد، كان يمكن ملاحظة ذلك من يدي ثائر اللتين كانتا ترتجفان طوال الطريق، ومن دقَّات قلبي المتسارعة.

جمال كان لا يزال يمنِّي نفسه أننا في تدريب، ولكنه بعد أن وصلنا إلى المدينة وشاهدنا طائرة هليكوبتر تحلِّق على ارتفاع منخفض، وسمعنا أصوات الرصاص تتناهى إلى آذاننا من بعيد، توصَّل إلى استنتاج بعث على الضحك لدى البعض، وحتى ثائر الذي كانت يداه ما تزالان ترتجفان ابتسم. «يا شباب... أكيد فيه شي» أطلق جمال استنتاجه الذي ساد الصمت بعده حتى وصلنا إلى المكان الذي أصبح فيه صوت الرصاص قوياً كما لو أنه خلف الجدار، وقد كان كذلك فعلاً.

داخل الحي كانت تدور معركة عنيفة، هذا ما تقوله غزارة النيران، أمَّا نحن فتمَّ إحضارنا كمساندة فقط، ولم يطلب منا الدخول إلى الحي، مهمَّتنا كانت تنحصر بضرب طوق حوله لمنع أحد من الخروج أو الدخول.

تمَّ توزيعنا في الشوارع المحيطة بالحي؛ وقف جنديٌّ كلَّ عشرة أمتار تقريباً، وقامت دورية من الأمن بتنبيه السكَّان عبر

مكبِّرات الصوت بعدم فتح الأبواب والنوافذ وعدم الخروج من البيوت حتى تنتهي العملية، كما تمَّ توجيه الأمر إلينا بإطلاق النار على أية نافذة أو باب يُفتح.

- «الموت يكره الانتظار».

قال لنا قائد الدورية مبرّراً أمر إطلاق النار على أيِّ باب يُفتح، ولم أفهم قصده في تلك اللحظة، ولم أعر اهتماماً لكلامه. كنت قلقاً لدرجة أنني لم أكن مستعدّاً لسماع النصائح، كانت أصوات انفجار القنابل اليدوية وأزيز الرصاص يملآن الفراغ. كنت أشعر بتلك الأصوات كما لو أنها كتل تتدحرج نحوي داخل كهف معدني. كان علينا أن نطلق النار في الهواء في أثناء الطريق لكي نتآلف مع صوت الرصاص؛ كان لديَّ شعور أنني لن أعود من هنا حياً، وهذا ما كان يشعر به الآخرون كما تبيَّن لي لاحقاً؛ في ظلِّ هذه الكثافة من النيران كان من المستحيل أن تخرج دون أن تتعرَّض لعشر رصاصات ولو طائشة، ولكن هذا لم يكن سوى وهم بطبيعة الحال، فقد كان بيننا وبين المكان الذي تدور فيه المعركة شارع أو شارعان، وكنا بمأمن تماماً عن إطلاق النار.

بعد ربع ساعة أخذ الخوف يتلاشى وألفنا تلك الأصوات، وإن كنا لم نتخلَّص من قلقنا بشكل كامل. ولكن الخوف عاد وتسلَّل إلى قلبي من جديد عندما فُتح باب يؤدي إلى الشرفة التي كنت مقابلها، ولم يخرج منه أحد، كانت الشرفة عريضة معدَّة لسهرات

الصيف على ما يبدو، وكان تطلُّ عليها نافذة مغطَّاة بأباجور فرنسي، وباب هو الآخر مغطًّى بأباجور فرنسي، والبيت كلُّه كما هُيِّئ إليّ يعود إلى تلك الحقبة. لم يبعث الخوف في نفسي أن الباب قد فُتح، بل أن أحداً لم يخرج منه. وعلى الفور أدركت كنه الأمر، شخص ما شاهدني من بين دفات الأباجور وحدَّد مكاني وها هو يزحف باتجاه حافة الشرفة، وعندما يصل إليها... سينهض ويعاجلني بطلقة ترديني قتيلاً، في لحظات التوتُّر هذه تسيطر فكرة واحدة على رأس الإنسان (إما قاتل أو مقتول)، وهذه الفكرة كانت تسيطر على رأسي في تلك اللحظة، ولهذا غيَّرت مكاني على الفور. تحسَّست لوحة الأمان فتأكَّدت من أنني في وضعية الرمي، وكنا قد لقَّمنا البنادق في الطريق. أخذت وضعية الاستعداد للرمي الغريزي لكي أعاجله من أيِّ مكان يطلُّ منه فأسبقه، وليعذرني؛ فأنا ما جئت لقتل أحد، ولكنني أيضاً لم آتِ لكي يقتلني أحد.

مرَّتْ لحظات طويلة من الانتظار، لحظات هُيِّئ إليَّ خلالها أنني أسمع دقَّات قوية لساعة رُكِّبت في رأسي، لحظات أطل بعدها رأس من خلف حافَّة الشرفة.

لم يكد الرأس يطلُّ حتى كانت فوَّهة بندقيَّتي موجَّهة نحوه، وعندما رأيت الوجه، كان بين واقيتي الشعيرة التي كانت تتوسَّط فرضة لوحة التسديد. الرصاصة ستخترق الجبين بين العينين، لم يبقَ سوى خطوة واحدة، أن تضغط سبَّابتي على الزناد، ولكن

سبَّابتي بقوَّة خفية ما، مصدرها السماء، أو مصدرها اللاوعي وهو أحياناً يفعل ذلك، أُصيبت بالشلل، تحوَّلت سبَّابتي إلى إصبع خشبيٍّ لا يتحرَّك، بينما تابع الوجه صعوده من خلف حافَّة الشرفة، فتمكَّنت أخيراً من رؤيته كاملاً عبر خطِّ التسديد.

أُصبت بالذهول، أخذ قلبي يخفق بشدَّة. فتاة في السادسة من عمرها تقريباً، عندما شاهدتني مصوباً نحوها ابتسمت ووضعت يدها على فمها، كان من الواضح أنها شعرت بالخوف، ولكنني حتى الآن لا أستطيع فكَّ لغز ابتسامتها، لا منظري بلباس الميدان الكامل، ولا منظر فوَّهة بندقيَّتي الموجَّهة إلى جبهتها يبعث على الابتسام، وأعتقد أنني لن أعرف سرَّ ابتسامتها ما حييت.

لقد كانت أجمل طفلة رأيتها في حياتي، لم أتمعَّن في تفاصيلها؛ فكلُّ فترة رؤيتي لها لا تتعدَّى اللحظات عبر خطِّ التسديد، وكان وجهها بين واقيتي الشعيرة، ولكن هذا الشعور تولَّد لديَّ وما زال في داخلي. لا أظنُّ أنني سأرى يوماً طفلة أجمل منها، خرجت من المنزل امرأة صرخت بها وشدَّتْها إلى الداخل، أمَّا أنا فأنزلت بندقيَّتي التي انتبهت أنها لا تزال على كتفي، أسندتها إلى الحائط وجلست على عتبة دكَّان مقفل وأشعلت سيجارة، ولم أعد أسمع شيئاً. أدرت ظهري للمعركة ولم يعد يهمُّني حتى لو اخترقت جسدي كلُّ رصاصات العالم. ومنذ ذلك اليوم يراودني سؤالان دائماً: ما سرُّ ابتسامتها؟ ومن منا أهدى الآخر الحياة؟

بروفا

الطريق الأسفلتي في أسفل الوادي، بالرغم من رومانسية المناظر التي تحيط به من الطرفين، إلا أنه كان أقلَّ الطرق أماناً في العالم في ذلك الوقت؛ فعلى القمم التي تعلو السفحين الصخريين المحيطين به كانت تتمركز فصائل وكتائب وفيالق الأعداء من نحو مئة طرفين من الأطراف التي تشكَّل منها تحالفان، ويكاد يبدو للمراقب الحيادي أنَّ لديهما هدفاً وحيداً في هذه الحرب؛ وهو التخلُّص من الذخيرة المتراكمة في مستودعاتهما. ففي الليل عندما كان أحد الحرَّاس، أو أحد عناصر الاستطلاع والمراقبة المتمترسين في إحدى القمم على أحد الطرفين، يشعر بالملل أو يتسرَّب الخوف إلى نفسه، كان يرمي علبة سردين فارغة تكفي قرقعتها لكي تلعلع أنواع الرشَّاشات ومدافع الدبَّابات والعربات

المدرَّعة كافَّة، مطرَّزةً السفحين المتقابلين بشكل يصعب معه القول إن ذرة من التراب لم تتحرَّك من مكانها في هذا النوع من مشاهد المسرحية الدموية التي تجري أحداثها في البلد.

على هذا السفح كنا نتمركز نحن، على يميننا فصيلة من رفاقنا في الجبهة الشعبية وعلى يسارنا مجموعة استطلاع من رفاقنا في الجبهة الديمقراطية، وأبعد قليلاً مفرزة من حلفائنا في الجبهة الوطنية، قربهم فصيلة من رفاقنا في تيَّار الوحدة الوطنية، وفي القمَّة الثالثة على اليمين صخرة يجلس خلفها دائمًا عنصران من حزب الشعب معهما بندقيَّتان آليَّتان من طراز كلاشينكوف؛ واحد منهما أخمص خشبي والأخرى أخمص طي. هذان العنصران لا يشاركان في أعراس الرصاص نهائياً بسبب نقص الذخيرة، وتسري شائعات أنهما لا ينتميان إلى حزب الشعب؛ حيث أن حزب الشعب كما يُشاع أيضاً ليس فيه أعضاء غير المكتب السياسي واللجنة المركزية وأفراد أُسَرهم، وأن هذين العنصرين يتواجدان هنا بأجر شهري معتبر والهدف من وجودهما فقط هو تسجيل موقف للحزب من أجل المفاوضات في حال حصولها. ولكن كما قلت تبقى هذه شائعات لست متأكَّداً من مدى صحَّتها. قرب جماعة حزب الشعب كانت تتمركز ثلاث دبَّابات لم أعد أذكر إلى أيِّ جيش من الجيوش الثلاثة التي كانت في صفِّنا آنذاك كانت تنتمي، قبل أن ينتقل اثنان منها إلى صفوف الأعداء المرابطين على

السفح المقابل، الذين كانوا بدورهم يتشكَّلون من فصائل كثيرة لا تقلُّ عن الفصائل التي نتشكَّل منها، وأسماؤها ليست أقلَّ تعبيراً من أسماء فصائلنا، أو كما كان يقول أبو الليل وهو مقاتل مسنٌّ أسنانه سوداء وصفراء بسبب التدخين، شارك في جميع المعارك التي خاضها فصيلنا الذي انتسب إليه منذ تأسيسه، حيث كان يقول موضِّحاً الفرق بيننا وبينهم: «نحنا على حليب، وهني على شكلاطة» ويبتسم ابتسامة رمادية تجسِّد كلَّ خيباته.

الطريق في أسفل الوادي كان مهجوراً تقريباً، ولكن قبيل الفجر يقوم بعض الرعاة من سكان المنطقة بالعبور من بعض الممرَّات هناك مستغلين الستار الذي يلقي به الظلام أو الضباب أحياناً على أسفل الوادي. لم نكن نراهم أبداً، كنا فقط نسمع أجراس أغنامهم، وكان هناك اتفاق ضمني من الطرفين على عدم إيذائهم، ولكن لم تكن هناك أي ضمانة بأنهم إذا كشفوا أنفسهم لن يشكِّلوا هدفاً مغرياً لقنَّاص ما، هم أو أغنامهم، فالقنص كما دلَّت التجربة يتحوَّل مع الزمن إلى ما يشبه الإدمان لدى القنَّاص؛ وأكَّد لي ذلك سامر الذي أعيش وإيَّاه في غرفة في الطابق العاشر في هذا المشفى في إحدى العواصم الأجنبية، حيث كان يقف دائماً على النافذة يتأمَّل الطرق الممتدَّة تحت نافذة الغرفة، وكان دائماً يُبدي إعجابه بالموقع الممتاز للمشفى، حيث أن قنَّاصاً واحداً في هذا المكان يمكنه أن يغلق نصف البلد. ثمَّ شرح لي في حواراتنا اللاحقة أن

هدفه من الوقوف على النافذة هو انتقاء الأهداف للقنص، العادة التي لم يتمكَّن من التخلُّص منها بعد انتهاء الحرب، وأنه أحياناً يشعر بما يشبه العطش لقنَّاصة بين يديه، خاصَّة عندما يكون على النافذة.

ومن بين هواياتنا في ذلك الوقت للقضاء على الملل هو تقليب موجة أجهزة اللاسلكي لكي نلتقط مكالمات الفصائل المنضوية في التحالف المعادي، حيث كنا نتبادل وإيَّاهم أقذع الشتائم التي لم تنجُ منها الأمَّهات والأخوات على الأخص، ونعدهم ويعدوننا بموت زؤام، وأنا أتعفَّف هنا بعد انتهاء الحرب عن التفوُّه بمثل تلك البذاءات التي كانت طقساً من طقوس المعركة. داود، قائد فصيلتنا، كان شديد الملاحظة، وانتبه أكثر من مرَّة إلى أن إشارة اللاسلكي لواحد من الفصائل المعادية الذين كنا نتبادل معهم الشتائم، كانت تصبح أكثر وضوحاً بالتزامن مع مرور أحد الرعاة أسفل الوادي، مما دفعه وهو المستنتج والمستنبط الحاذق بأن هذا الراعي تحديداً ليس راعياً، وإنما هو عنصر استطلاع تابع لفصيل معاد، ولم يكتفِ داود بالاستنباط والاستنتاج، بل تابع مقترحاً: لماذا لا ننصب له كميناً ونختطفه فنحصل منه على معلومات قد تهمُّنا، ويتمكَّن الرفاق في القيادة من إجراء صفقة تبادل بعد ذلك؟ ومع أن الاقتراح كان جنونياً بسبب صعوبة النزول إلى أسفل الوادي، وربَّما استحالة الخروج منه، إلا أننا جميعاً وافقنا

على الفكرة؛ فأبشع تهمة تُوجَّه إلى الإنسان في زمن الحرب هي أنه جبان، وكلُّنا كنا على ثقة بأن داود لم يكن ليتوانى عن توجيه هذه التهمة إلى أيِّ شخص يعترض على اقتراحه. لم يكن داود غبيّاً، فهو لم يقترح أن نقوم على الفور بنصب الكمين، بل اقترح أن نجري (بروفا) في البداية، لكي نتأكَّد من واقعية الفكرة، ومن ثمَّ نقوم باختطافه في يوم لاحق، وهذا ما كان.

أرسل داود مراسلاً إلى قيادة فصيلتنا في المؤخَّرة لكي يؤمِّنوا لنا مخدراً نضعه على قماشة نضعها على وجه الراعي المشبوه عندما نمسك به، من أجل عدم إثارة الضجيج. انطلق المراسل باتجاه القيادة في الساعة العاشرة مساء على وجه التقريب، وكان يحمل الخطَّة التي كتبها داود للعملية والتي يطلب معها الموافقة على القيام بالعملية، بينما بدأنا نحن بتنفيذ البروفا في الساعة الثانية عشرة ليلاً، حيث كانت تقتضي الخطَّة أن ننطلق في الساعة الثانية عشرة ونبقى المدَّة المفترضة لمرور الراعي وإلقاء القبض عليه ثم العودة إلى الأعلى قبل أن يرسل الفجر خيوطه. وبحسب خطَّة داود فإن فترة نزولنا كان يفترض أن تستغرق ساعة، وعملية القبض على الراعي عشر دقائق كحدٍّ أقصى، ومدَّة العودة إلى الموقع ساعة ونصف، وهذا ما ثبت فشله منذ تنفيذ البند الأوَّل، حيث تمكَّنا بعد جهد مضنٍ تعرَّضت خلاله أرجل معظمنا لالتواءات أصبح عدد منا بعدها يعرج؛ تمكَّنا من الوصول في نحو الساعة الثالثة

والنصف، وهذا يعني أن صعودنا وعودتنا إلى الموقع ستستغرق في أحسن الأحوال أربع إلى خمس ساعات، وهذا بدوره يعني أننا في الخامسة صباحاً سنكون هدفا سهلاً لكلِّ من يرغب في تجربة دقَّته في التصويب أو براعته في الرمي الغريزي، وهذا ما اكتشفه داود قبل أي شخص آخر. وتوصَّلنا إلى نتيجة أنه لا بدَّ لنا من الاختفاء حتى يحلَّ ظلام الليلة المقبلة فننسحب بأمان وننسى أمر الراعي، واقترح داود أن نختفي في عبَّارة كانت تحت الطريق الأسفلتي هناك، وبطبيعة الحال طلب منا داود عدم التدخين أو إصدار أيِّ صوت. وقال مداعباً:

- «حتى إذا واحدكم بدُّه يضرط... يعمل جهده يطالعها فسوة».

احتضن كلٌّ بندقيته وتمدَّدنا جميعاً في العبَّارة، وبسبب البرد الذي تسرَّب من الأرض الرطبة التي كانت بحالة ما بعد الوحل بقليل فقد أصيب بعضنا بالمغص، وكنت أشاهد كيف كانت عضلات وجه الشفيع أحمد تتلوَّى وهو يحاول كتم الألم المتولِّد بسبب تشنُّج أمعائه. وقبيل بزوغ الفجر بقليل انبعثت رائحة تدلُّ على أن أحدهم قد ترك الحرِّية لأمعائه لكي تتخذ القرار الذي تراه مناسبا لها، وقد تبيَّن بعد ذلك أن تلك الأمعاء هي أمعاء داود شخصياً، أمَّا أنا فقد تمكَّنت من الصمود لأنني كنت أرتدي حزاماً صوفياً على بطني ساعدني في الصمود أمام البرد ولكنه لم

يساعدني في الصمود أمام الخوف والملل ورائحة داود. ولذلك فعندما أرسل الفجر أولى خيوطه وشاهدت الحصى التي جمعتها السيول عند فوهة العبارة أخذت أتسلَّى بعد الحصى، ومع تعالي أصوات الأجراس المعلَّقة في رقاب الأغنام واقترابها أخذت أشعر بمغص وأخشى أن يحدث معي ما حدث مع داود، إلا أن المغص اختفى عندما وقعت عيني على سلك كهربائي ينبثق من بين الحصى ويمتدُّ خلف ظهري على جدار العبَّارة. تسرَّب القلق إلى نفسي وتابعت السلك لأكتشف أنه موصول إلى كتلة في سقف العبارة، ولم أكن في حاجة إلى تفكير عميق لكي أعرف ما هذا الشيء، وأنا الذي فعلت هذا عشرَّات المرَّات. لسنا وحدنا من يريد رأس ذلك الراعي، ويبدو أن هذه العبوة ستنفجر عند وصوله إلى فوق العبَّارة التي يدلُّ الثغاء أنه فوقها الآن، ولذلك لم يكن هناك مجال للتفكير؛ فصرخت وأنا أخرج من العبَّارة

- «عبوة يا شباب! اطلعوا!».

ولكن العبوة كانت أسرع مني، ولم يدرك الشباب الذين انطبقت عليهم العبارة وتحوَّلت إلى قبر لهم ما الذي حصل، وأنا أيضاً مثلهم لم يسعف الوقت ذاكرتي لكي تلتقط صوراً بعد الانفجار، فقد فقدت الوعي ولم أستيقظ إلا في المشفى حيث كان الجرَّاحون يبذلون جهودهم لكي لا تُبتر ساقي، وقد علمت أن الذي أسعفني إلى المشفى هو نفسه الراعي الذي كنا ننوي نحن

اختطافه، وينوي التيَّار الشعبي الديمقراطي تفجيره، وهو من قرية جعل قدرها السيِّئ موقعها الجغرافي في وسط ساحة المعركة.

نعت حركتنا الشهداء الثلاثة، وأصدرت بالاشتراك مع التيَّار الشعبي الديمقراطي بياناً تبنَّت فيه العملية، ذكرتا فيه أنهما دمَّرتا دورية استطلاع للعدو. أمَّا أنا وبعد أن تمكَّن الأطبَّاء من جعل جسدي يحتفظ بساقي التي كانت شبه مبتورة، فقد أرسلتني الحركة إلى هذه الدولة الأجنبية لمتابعة العلاج، وها أنا رجلي ملفوفة بالضمادات ممدَّد على سرير وثير، وسامر يقف على النافذة باحثاً عن جمجمة يفجرها برصاصة من قنَّاصته التي يشعر بعطش ليمسك بها بيديه.

رصاصة واحدة فقط لا غير

بعد منتصف ليل الخميس الموافق 22/ 6، حيث كنت رئيساً للحرس، دوى صوت طلق ناريٍّ من جهة الشرق وسُمعت صرخة قوية ثمَّ عمَّ الصمت. ولأننا كنا أصلاً في حالة استنفار فإن تلك الرصاصة التي دوت في مكان ما من المعسكر أو على أطرافه، قد أيقظت الجميع، ولم تمضِ دقيقة حتى رنَّ جرس الهاتف في غرفة رئيس الحرس، سمعت ذلك خلف ظهري وسمعت العريف جهاد يردُّ على المتَّصل الذي لم أعرف من هو، لأنني عند سماع الطلق الناري حملت سلاحي وتوجَّهت فوراً مع دورية من عنصرين إلى الجهة التي صدر منها الصوت. فأنا، الصعلوك الذي لا يحلّ ولا يربط، والذي كما يحلو للبعض التعبير: لا يساوي فرنك في

ساعة الغلاء، سأُصبح المسؤول الأوَّل والأخير عن هذه المساحة الشاسعة التي ينتشر عليها جنودي الستَّة عشر على شكل حرَّاس، وفي حال حصلت مصيبة فإن أي كلام ستقوله سيكون بدون فائدة ولا جدوى منه؛ فالضبَّاط في المحاكم الميدانية عادةً لا يجلسون خلف طاولة القاضي من أجل الاستماع لما جرى، ولا يهمُّهم ما الذي ستقوله إطلاقاً. إنهم يجلسون هناك لإصدار حكم بالإعدام، بحقِّ شخص ساقه حظُّه السيِّئ إلى قفص الاتهام فقط ليجعلوا منه عبرة لمن اعتبر، أو ليقوموا بلفلفة قضية ما تخصُّ شخصاً لا يريدون أن يُذكر اسمه في القضية.

ولذلك فإنه من الأفضل لي أن أموت في معركة، بدلاً من الموت على عمود الإعدام الذي تقرِّره المحكمة الميدانية.

وصلنا إلى النقطة التي جاء منها الصوت فوجدنا المجنَّد مصطفى الحجال يسبح في دمه، وهذا يعني أن هناك من لا نراه في الظلام قد أطلق النار على المجنَّد مصطفى، وهذا يعني أنه مسلَّح أيضاً، ولذلك أصدرت أمراً بالانبطاح لكي لا نكون هدفاً سهلاً لعدوٍّ يتربَّص بنا في الظلام، ولكن مصطفى الذي كان يمسك رجله ويتألَّم قال بصعوبة وهو يئن:

- «لا تخافوا... لا تخافوا... أنا الذي أطلق النار».

عادت الطمأنينة إلى نفوسنا ونهضنا عن الأرض وتوجَّهنا إلى مصطفى وبدأنا بإجراء الإسعافات الأولية، حيث تبين أن الإصابة

في مشط رجله،وقد فتحت فيه فجوة كبيرة لم أتمكَّن من رؤيتها جيِّداً في الضوء الهزيل الصادر عن قدَّاحة «الكليبر» التي أشعلها المجنَّد درغام لكي يضيء لي. ولكنني تحسَّست تلك الفجوة بأصابعي أكثر من مرَّة وأنا ألفُّ رسغ الرجل اليمنى للمجنَّد مصطفى لوقف النزيف بالرباطات التي مزَّقتها من قميصي القطني الداخلي الذي لم أجد غيره ضماداً. يدلُّ اتساع الفجوة في رجله على أن فوَّهة البندقية كانت قريبة جدَّاً من مكان الإصابة، وهذا بدوره يدلُّ على أن إطلاق النار لم يكن عن طريق الغلط وإنما كان مقصوداً. هذه ليست أوَّل حادثة من هذا النوع أصادفها في أثناء أداء خدمتي، حيث يقوم المجنَّد بالتسبُّب لنفسه بأذى لكي يحصل على عاهة دائمة تجعله يُعفى من الخدمة العسكرية. فقد سبق للعريف علي أن حقن بطَّة ساقه بالمازوت فتورَّمت حتى كادت تنفجر. وأذكر عندما كنت في السجن أن جنديين أُحيلا إلى هناك من المشفى العسكري وكان كلٌّ منهما مصاباً برجله بعد أن أطلق النار عليها. وبشكل عام فإن مصطفى كان قد أفصح عن نيَّته غير مرَّة، ولكنني ما كنت أصدقه، اليوم فقط صدَّقته.

وصلت سيَّارة الدوريات الزيل 57 بعد خمس دقائق تقريباً، وقمنا بتحميل مصطفى في الصندوق وتوجَّهنا به إلى مستوصف المعسكر فوراً، ومن هناك وبعد إجراء الإسعافات الأولية أرسلوه إلى المشفى العسكري.

لم أرَ مصطفى بعد ذلك، ولكنني علمت أنه فقد نصف قدمه، ثمَّ حُوكم وأُرسل إلى السجن بعد أن تعافى من جرحه في المشفى، وبطبيعة الحال سيُسرَّح بعد انتهاء حكمه.

ولأنني قمت بكلِّ ما يُمليه عليَّ واجبي فكنت أوَّل شخص في موقع الحادث، وقمت بإسعاف مصطفى على خير وجه وعيَّنت بديلاً له في نقطة الحراسة، ولم تحدث أية بلبلة بسبب الذي جرى، فإنه لم يكن لأحد ملاحظة يمكن أن يوجِّهها إليَّ، فقط الرقيب يوسف الذي كان يفترض أن يستلم مني المناوبة في رئاسة الحرس، رفض أن يوقِّع على محضر استلام الذخيرة لأنها تنقص طلقة واحدة، وعندما شرحت له السبب أبدى تفهُّمه، ولكنه أصرَّ على أن يتلقَّى أمراً من الضابط المناوب يسمح له باستلام الذخيرة ناقصة. ولأن القوانين كانت صارمة في تلك الفترة العصيبة، ولم تكن تسمح بضياع أي طلقة بدون تقرير مفصَّل عن مصيرها، فقد تفهَّمت موقف يوسف ورفعت الهاتف واتصلت بالضابط المناوب الذي أبدى موافقته على أن يستلم الرقيب يوسف الذخيرة ناقصة طلقة واحدة. ولكن يوسف الذي عُرف بحرصه وبأنه لا يشتري الأوامر الشفهية بقشرة بصلة، أخذ الهاتف وتحدَّث مع الضابط المناوب طالباً منه بأدب بالغ أن يكتب ذلك في دفتر الاستلام والتسليم خطِّياً بيده ويوقِّع عليه تحسُّباً لكلِّ طارئ، فسخر منه الضابط المناوب ووافق على اقتراحه لكي يتخلَّص منه.

توجَّهنا أنا ويوسف إلى المقر ودخلنا إلى مكتب الضابط المناوب الذي طلب مني كتابة تقرير مفصَّل عن مصير الطلقة المفقودة. ففعلتُ، وقام هو بالتوقيع عليه وإرساله مع يوسف إلى أمين مستودع الذخيرة لكي يعوِّض تلك الطلقة المفقودة ويحتفظ بالتقرير في أرشيفه.

ويمكن القول إن الأمور انتهت على هذا الشكل، ولكن تفصيلاً أخيراً يخصُّ الحادثة تعرَّفت إليه بعد أسبوع تقريباً عندما شاءت الظروف أن أذهب إلى مستودع الذخيرة لسبب ما، حيث لفت انتباهي أمر إداري معلَّق في لوحة الإعلانات هناك، موقَّع من قائد المعسكر ومهور بخاتم القطعة، وقد كتب فيه:

يُغرَّم المجنَّد مصطفى الحجال بطلقة كلاشنكوف عيار 7،62 عدد واحد فقط لا غير.

المرصد

منذ البداية قلنا لسيادة الملازم: هذه القمّة لا تصلح لتكون مرصداً، إن شعروا بوجودنا هنا فستكون نهايتنا، لا يوجد أيُّ طريق يؤمّن انسحابنا، فالقمّة عارية تماماً سوى من هذه الكتلة الصخرية.

ولكن سيادة الملازم أصرَّ على صحّة موقفه وأكّد أن هذه الصخور في حال تمَّ اكتشافنا من قبل العدوِّ تؤمّن لنا الحماية اللازمة، فالأخاديد والشقوق الموجودة في هذه الكتلة الصخرية توفّر لنا حرّية الحركة، وفي حال انكشاف الموقع يمكننا أن نخوض معركة صغيرة ريثما تؤمّن لنا المدفعية تغطية نارية تمكّننا من الانسحاب، وأخذ يهذي بكلام فارغ من الذي درسه في الكلّية والذي لم يكن يقنع أحداً، ولكن الوقت لم يتسنَّ لأيٍّ منا أن يناقشه

فيما يقول، فقد اكتشف العدو موقعنا قبل أن يكمل سيادة الملازم حججه الواهية عن حصانة الموقع.

انهمر الرصاص علينا من الجهات الأربع، فعدا عن كون القمَّة كانت عارية إلا من هذه الصخور، تبيَّن أنها تقع خلف خطوط العدوِّ أيضاً، وأصبح واضحاً لنا أن سيادة الملازم الذي حدَّد الموقع نهاراً وقادنا إليه ليلاً تحت جنح الظلام لا يفقه حتى في الخرائط، وهو يتحمَّل المسؤولية كاملة عن هذا الخطأ الفادح، ولكن هذا ليس وقت الحساب، فكلٌّ يبحث عن شقٍّ يدسُّ نفسه فيه اتقاءً للرصاص والشظايا.

كانوا يمطروننا بالرشَّاشات الثقيلة ومدافع الهاون، وسرعان ما ظهرت فوقنا حوامة أخذت تحلِّق دائرياً فوق الموقع وتصلينا برشقات رشَّاشها كما لو أن طاقهما كان يتسلَّى باصطيادنا. لم يكن أحد منا يعرف ما الذي يحدث حوله مع الآخرين، ولم يطلب أحد النجدة من أحد، كانت أصوات الانفجارات وأزيز الرصاص تسيطر على كلِّ شيء، وكان هناك صوت لم نسمعه في المعارك السابقة، إنه صوت تكسر الصخور، كانت القمَّة التي حشرنا فيها سيادة الملازم، وبفعل قذائف الهاون وطلقات الرشَّاشات، كأنما تتعرَّض للتكسير بآلاف من المطارق الفولاذية الضخمة. وكانت الشقوق التي حشرنا فيها أنفسنا بين الصخور كأنما تنطبق على صدورنا كلَّما انفجرت قذيفة هاون. بعد عدَّة دقائق لم أعد أعرف

ما يجري، كنت أرى سراباً فقط، وأسمع دوياً متواصلاً كما لو أن الريح تنفخ في بوق ضخم بنغمة قرار متواصلة، وقد وُضعت فوَّهته على أذني.

ثمَّ وبعد أن روت الرشَّاشات ومدافع الهاون ظمأها للنار، توقَّف الرمي وابتعدت الحوَّامة وحلَّ صمت ثقيل، كما لو أن العالم كلَّه أصبح حجرة خاوية. صمت لم يقطعه سوى صوت الرقيب أديب الذي نهض من تحت التراب ينظر بقلق إلى بطَّة رجله اليسرى التي كشف عنها ساق السروال، فاكتشف أنه أصيب بخدش سبَّبته شظية ما، نتحت منه بعض قطرات صغيرة من الدم، ولكنها كانت كافية لكي تدبَّ الرعب في نفس أديب الذي سرعان ما استلقى على ظهره وأمسك برجله التي رفعها في الهواء وأخذ يصيح بلهجته القروية:

- «آني قُتلت يا سيدي الملازم... آني قُتلت يا سيدي الملازم».

منظر الرقيب أديب وهو يمسك برجله ويصرخ بدون انقطاع منتحباً أحياناً بأنه قُتل، وتمسكه بأصول المخاطبة العسكرية حتى في لحظة احتضاره، كما كان يظن، كان منظراً يصلح لمشهد في فيلم كوميدي، أكثر منه لحرب.

ذكَّرني منظره بثعلب في إحدى قصص الأطفال التي درسناها في كتاب القراءة في صفٍّ من صفوف الابتدائية، لا أظن أن مشهداً يبعث على الضحك أكثر من مشهد الرقيب أديب الآن، ولكن أحداً

لم يضحك بطبيعة الحال؛ فقد كنا جميعا جثثاً هامدة مزَّقتْها شظايا قنابل الهاون وتخارقها الرصاص، حتى الرقيب أديب لم يطل به الأمر، فقد لاحظوا في النقاط المحيطة بنا حركة ما لا تزال تشير إلى وجود حياة في موقعنا، فسمع صوت رشقة قصيرة لرشَّاش، انضم بعدها الرقيب أديب إلى صمتنا الأبدي.

نخب السيِّدة ميلز

بعد طول انقطاع، شاهدت مصطفى مصادفةً عند مدخل سوق الحميدية، تعانقنا وأعرب كلٌّ منا عن سروره بهذا اللقاء، ثمَّ دعاني لشرب فنجان قهوة في مشغله في منطقة قريبة من هناك. تبيَّن أن أبا صطيف يعمل في مجال الكاوشوك، حيث رأيت في مشغله مكابس توضع فيها عجينة الكاوشوك الطحينية اللون ثمَّ تخرج من هناك سوداء وقد أخذت شكل القالب. لم أسأل مصطفى عن هذه الأشياء التي يشويها في المكابس، فلم يكن ذلك يهمُّني. سألته عن الشباب فقط إن كان يراهم، فقال لي إنه يتصل ببعضهم ويلتقي بعضهم أحياناً، بينما فقد آثار البعض ولم يعد يعرف عنهم شيئاً.

كنا عشرة أشخاص عندما انفجرت قنبلة ألقى بها أحدهم خلفنا، فتبعثرت شظاياها في ظهورنا، أنا نالني سبعة عشر منها،

واحدة فقط كانت كبيرة الحجم وتوغَّلت حتى العمود الفقري تاركةً ندبة كبيرة سترافقني مدى الحياة. أمَّا باقي الشظايا فكانت صغيرة إبرية الشكل انتُزعت دون أن تسبِّب لي مشاكل. الآخرون كان نصيبهم مثل نصيبي تقريباً، فقط يحيى أُصيب إصابة خطيرة أسفل جمجمته وفارق الحياة في المشفى العسكري بعد نحو ثلاث ساعات.

أمضينا في المشفى شهراً كاملاً، وكان يُطلق على مهجعنا اسم (مهجع المنبطحين) لأننا جميعاً كنا مصابين في ظهورنا وكنا مضطرِّين إلى النوم طوال الوقت في حالة انبطاح على البطن. بعد ذلك تخرَّجنا من المشفى وقد توطَّدت بيننا العلاقة وتحوَّلنا من زملاء إلى أصدقاء. لقد تبيَّن لنا أن صداقة شخص نجوت برفقته من الموت تشبه إلى حدٍّ ما صداقة الطفولة.

بقينا لعدَّة سنوات نتواصل بشكل دوري، يجتمع قسم منا أحياناً، ونجتمع كلُّنا في بعض الأوقات، إلى أن انقطعت بسبب السفر، وها أنا اليوم ألتقي صدفة بأبي صطيف الذي دعاني لتناول القهوة في مشغله، فتناولناها وتناولنا الشاي وأكلنا الفول، وفي آخر الليل وجدتني أبيت عنده في حرستا، حديث يأخذنا وحديث يردُّنا، وقمنا في أثناء ذلك بالاتصال مع من تمكَّنا من العثور عليه من أصدقائنا المجاريح القدامى، واتفقنا على اللقاء في اليوم التالي في مطعم في الربوة كنا نلتقي فيه دائماً.

في مساء اليوم اللاحق اجتمع ستَّة أشخاص من العشرة، فقد تبيَّن أن عبد السلام اختفى أثره، وأيمن سافر إلى الولايات المتَّحدة، ومالك تُوفِّي في حادث كهرباء، وعدنان قال إنه سيأتي لكنه لم يحضر. بدأ اللقاء بعناق متبادل بين الجميع ودارت أحاديث حميمية تخلَّلتها الضحكات الرنَّانة، وساد ضجيج لم ننتبه خلاله كيف امتلأت الطاولة بالطعام وأترعت الكؤوس، ولم يتوقَّف الضجيج إلا بعد أن أعلن نادر بصوته الجهوري ولهجته اليبرودية التي تنقلب ألفُها واواً، وقد وقف وحمل بيده كأسه:

- «يا شباب، لنشرب بصحَّة السيِّدة ميلز ستَّة وثلاثين التي جمعتْ هؤلاء الشباب الأكابر».

وبعد أن شربنا نخب القنبلة ميلز ستَّة وثلاثين التي انفجرت خلفنا وجمعتنا في المشفى، راح حسن يقلِّد الرقيب لؤي الذي كان مدرِّبنا في الدورة وهو يشرح عن القنبلة بأسلوبه المميز ولهجته الديرية:

- «هاذي القنبلة اليدوية الإنكليزية ميلز ستَّة وثلاثين... نذبّها عالعدوْ تقتل داير ما يدورها خمسة وعشرين متر...».

حفرة الرامي واقفاً

لم تكن حفرة الرامي واقفاً التي كان كل منا يحفرها لنفسه في ذلك السفح مخصَّصة من أجل القتال، فهي أقرب إلى الجحر منها إلى التحصين القتالي. كما أننا كنا فصيلة استطلاع متخفِّية، أول ما علينا فعله عندما ينكشف موقعنا هو أن نغيِّر المكان قبل أن تنهمر علينا القنابل من كلِّ الجهات، وكان لدينا دائماً موقعان أو ثلاثة تمَّ اختيارها سلفاً من أجل الانتقال إليها فوراً في حال انكشفنا. كما أنه لم يكن لدينا مهام قتالية تفرض علينا الالتحام مع العدو، وهو أمر يجب ألا يحدث إلا عند الضرورة القصوى حين لا يكون من ذلك مفر.

حفرة الرامي واقفاً كان الهدف منها حمايتنا من القصف في أثناء الغارات التي يشنُّها الطيران المعادي، حيث كانت الحفرة،

كما هي الشروط، بعمق يتَّسع لقامة المقاتل كاملة سواءً في حالة الوقوف أم في حالة الانحناء بشكل يمكِّنه من الاختفاء داخلها تماماً. وبغية الحماية من القنابل العنقودية، وهذا كان أحد الأهداف الأساسية لتلك الحفرة، كنا نسقفها إما بأغصان الأشجار التي نغطِّيها بالتراب، أو بألواح خشبية أو ألواح توتياء إذا توفَّرت، ونردمها بالتراب أيضاً؛ فسطح الحفرة هذا كانت مهمَّته منع القنابل العنقودية المخصَّصة للانفجار بعد سقوطها في الخنادق من السقوط في الحفرة، وجعلها تتدحرج فوق سطح الحفرة لتتابع طريقها إلى الأسفل وتنفجر في مكان آخر.

لطفي، الذي أخذ يتصبَّب عرقاً منذ اللحظات الأولى حين بدأنا بحفر تلك الجحور، رمى المعول جانباً وقال:

- «خيُّو، أنا بدي موت فوق الأرض».

أمَّا الحقيقة التي صارحني بها لطفي لسبب عدم متابعته الحفر، فهي ليست رغبته في الموت فوق الأرض، وإنما حجم الحفرة التي كان عليه حفرها لكي تتَّسع لقامته التي يبلغ طولها قرابة المترين، وسمنته التي تجعل محيطه أكثر من متر. فقد أسرَّ لي قائلاً:

- «لك خيو انتو كل واحد منكن بيعمل بخش بالأرض بيخشِّق فيه، أنا بدي أحفر قبو لحتى يوسعني».

والحقيقة الأخرى التي جعلت لطفي يعفي نفسه من هذا الأمر هو اطمئنانه إلى أن الطيران المعادي لن يستهدفنا، فقد كنا

المجموعة الأقلَّ أهمِّية بين كلِّ التجمُّعات العسكرية الموجودة حولنا. ونحن في الحقيقة كنا نعتقد الأمر نفسه بنسبة تسعين في المئة، فما الذي يجعل طيران العدو يكلِّف نفسه عناء قصف مجموعة لا يتجاوز عدد أفرادها الثمانية من المشاة، بينما هناك في الجوار قطع عسكرية لديها أعداد كبيرة من الآليَّات بين دبَّابات وآليَّات مدرَّعة ومدفعية وغيرها؟ ولكننا مع ذلك كنا بمجرَّد أن نسمع كلمة التحذير المألوفة لدينا «طيران» نركض مسرعين إلى حفرنا، والتي لكثرة ما انزلقنا إليها أصبحت لدينا خبرة الجرذان في دخول جحورها عندما ندخل إليها. أمَّا لطفي، فكان يقهقه ويضحك وهو مستلقٍ على ظهره واضعاً رجلاً فوق رجل تحت إحدى الشجرات التي تفحَّمت بسبب قصف بالقنابل الفوسفورية سبق حضورنا إلى المكان، وعادة ما يصيح بنا بعد اختفاء الطيران:

- «اطلعوا يا جرادين اطلعوا... راحوا الطيَّارات».

استمرار تجاهل الطائرات لنا وانصباب اهتمامها على من حولنا جعل لطفي يبالغ بشعوره بالأمان، لدرجة أنه لم يعد يستيقظ من قيلولته، مكتفياً بالاستدارة نحونا والقول بنبرة متهكمة:

- «طيران يا جرادين، كل واحد على جورته».

ثمَّ يتابع قيلولته حتى لو كان القصف يستهدف السفح المجاور، ومع الزمن بدأت عدوى هذا الاطمئنان تتسرَّب إلى نفوس بعضنا حيث أخذ عدد الذين لا يهرعون إلى حفرهم في أوقات الغارات

يزداد يوماً بعد يوم حتى قارب نصفنا تقريباً، وربَّما كان سيتسرَّب إلى نفوسنا جميعا لو لم تحدث غارة الخميس التي حلَّقت فيها الطائرات على ارتفاع منخفض، جعلت لطفي يقسم بعدها أنه شاهد الطيَّار يحدِّق في عينيه. يومها أدرك الجميع أن الطائرات جاءت إكراماً لنا في هذه المرَّة، ومن الطبيعي أن الجميع وقتها شعروا بالخوف وانزلقوا إلى الحفر التي حاول لطفي أن يدخل إلى بعضها، ولكن الأيدي والأرجل كانت تدفعه خارجاً كون الجحر لا يتَّسع لجرذين.

بقي لطفي حيَّاً بعد القصف، ولكنه في هذه المرَّة لم يدعُ الجرذان إلى الخروج من جحورها كما جرت العادة، بل كان منهمكاً بحفر الأرض بمعوله الفردي والعرق يتصبَّب منه، ولم يكن يتوقَّف عن الحفر إلا من أجل مسح عرقه الذي كان يحرق عينيه، أو من أجل رفع بنطاله الذي كان يسلت بين فينة وأخرى. وفي غضون ساعتين إلى ثلاث ساعات كان لطفي قد حفر لنفسه قبواً وسقفه بما تيسَّر له من الأغصان والأخشاب، ومع الأيَّام وسعه حتى أصبح أشبه بغرفة تحت الأرض كان يدعو إليها البقية من أجل لعب «الشدَّة» حتى في أثناء الغارات التي كانت تستهدف المواقع المجاورة. وأصبح يمضي معظم أوقاته في الحفرة ولا يخرج إلا لقضاء حاجته أو لتنفيذ مهمَّة ما. وعندما يسخر منه أحدهم قائلاً:

- «راحت الطيَّارات، طلاع يا جردون».

كان يردُّ قائلاً:

* «مية كلمة جردون ولا كلمة الله يرحمه».

لم تستمرّ حياة لطفي في تلك الحفرة طويلاً، فبعد ما يقارب ثلاثة أسابيع، وفي أثناء تنفيذنا لإحدى المهمّات الاستطلاعية خلف خطوط العدو، وقعت المجموعة في حقل ألغام انفجر على إثرها لغم بأحد أعضاء المجموعة، وقد تعرَّضت قدمه على الأغلب للبتر. زحف لطفي لسحبه من هناك، فانفجر به لغم آخر، ولكن لم يزحف لسحبه أحد هذه المرَّة، لأن إطلاق النار بدأ باتجاهنا بعد أن كشفنا الانفجاران، ممَّا اضطرَّنا إلى الانسحاب تاركين خلفنا كلَّ شيء، خاصة بعد أن شاهدنا رشقات طويلة ومستمرَّة من رصاص الرشَّاشات تخترق جسديهما، وتأكَّدنا من أن كُلّاً منهما قد قضى نحبه.

ما زلت على قيد الحياة

وأنا أنشِّف رأسي بعد خروجي من الحمَّام، لفتت نظري الإشارة الزرقاء التي يطلقها جهاز هاتفي الخلوي، ممَّا يعني أن أحداً اتصل بي وأنا أستحم. أضأت الشاشة فوجدت اتصالين لم يتمُّ الرد عليهما من الرقم نفسه في سوريا، ثمَّ وجدت رسالة من الرقم نفسه أيضاً؛ ففتحتها ووجدت فيها العبارة التالية: (ما زلت على قيد الحياة). وبما أن الرقم غير مخزن عندي فقد حرتُ في أمري، من يكون صاحب الرسالة؟ ولذلك ضغطت على الرقم وقرَّرت الاتصال لمعرفة الشخص الذي ما زال على قيد الحياة.

رنَّ الهاتف في الجهة المقابلة وانتظرت بصبر نافد أن يرفع ذاك الذي ما زال على قيد الحياة السمَّاعة. استدرجت إلى ذاكرتي كلَّ الذين أعرفهم؛ أهلي وأصدقائي كلَّهم، حتى جيراني استحضرت

صورهم، كلُّهم كانوا في الأمس تحت رحمة النيران، وكلُّهم يعرفون أنني أعرف أنهم في بوتقة الخطر، وأنني قلق عليهم جدّاً، ولذلك قام أحدهم بطمأنتي. ولكن لماذا قال «ما زلت» على قيد الحياة ولم يقل «ما زلنا»؟ بالتأكيد هو لا يقصد أنه وحده الذي ما زال على قيد الحياة وإلا لما أخبرني. لماذا اسمه غير مسجَّل عندي إن كان صديقاً حميماً أو واحداً من أهلي؟ ربَّما فقد هاتفه واستبدله بواحد جديد، هذا أمر وارد جدّاً في زمن من السهل فيه أن يفقد الإنسان حياته، فما بالك هاتفه! سامحه الله! كان في إمكانه أن يكتب اسمه في نهاية الرسالة. ظلَّ الطرف الآخر صامتاً حتى خرج صوت نسائي يعلمني أن الشخص الذي أطلبه لا يردُّ على الاتصال، وأن في إمكاني ترك رسالة صوتية. فكَّرت أنه هو الآخر ربَّما يكون في الحمَّام الآن. سأجرِّب مرَّةً أخرى، فإن لم يجب أترك له رسالة صوتية.

صنعت لنفسي فنجاناً من القهوة وأشعلت سيجارة وجلست أحتسيه. لم أتمكَّن من الانتظار كثيراً، فرفعت الهاتف واتصلت بالرقم مجدَّداً. ومن جديد بدأ الرنين ولكن أحداً لم يرفع السمَّاعة، وخرجت المرأة تعلمني أن في إمكاني ترك رسالة صوتية، ففعلت طالباً من الشخص أن يعرِّفني بنفسه بعد أن هنَّأته ببقائه على قيد الحياة. ثمَّ أرسلت إليه رسالة نصية كرَّرت فيها تهنئته بالسلامة، وطلبت منه أن يطمئنني ويعرِّفني بنفسه، وانتظرت حتى وصلني

إشعار بأن الرسالة وصلت، وتابعت نفث دخان سيجارتي بتوتُّر واضح. حلقت ذقني، ونظَّفت أسناني تأهُّباً للخروج. وقبل أن أرتدي ثيابي نظرت إلى الشاشة فلم أرَ أيَّ ردٍّ على رسالتي، وقرَّرت الاتصال من جديد لكن شيئاً لم يتغيَّر؛ بقي الصمت على الطرف الآخر سيِّد الموقف. قرَّرت الاتصال بالأهل، فإن لم يخبروني باسم ذلك الذي ما زال على قيد الحياة، سيخبرونني بأسماء من قُتلوا في وطيس أمس. اتصلت بأخي فلم يرفع السمَّاعة أحد، وأختي أيضاً لم تفعل. والدي ووالدتي اللذان ينتظران هاتفي مثل انتظار التراب للمطر، واللذان حين كنت أتصل لم يكن الهاتف يرنّ طويلاً حتى يرفع أحدهما السماعة بلهفة، لم يردَّا أيضاً. اتصلت بأصدقائي واحداً بعد آخر دون نتيجة. بدأ ينبعث من الهاتف عواء ذئب جريح أخذ يتعالى حتى ملأ فضاء غرفتي، وفي المدينة التي تحوَّلت إلى أطلال كان يخيِّم صمت رهيب يقطعه بين الحين والآخر رنين هواتف نقَّالة ليس هنالك أحد من أصحابها على قيد الحياة ليردَّ على المتَّصل البعيد.

تم في دمشق ٨/١٢/٢٠١٦

ممدوح حمادة

كاتب سوري مقيم في بيلاروس منذ العام 1984، حيث درس فيها الصحافة. عمل مدرِّساً في إحدى جامعاتها ما يقارب العشر سنوات، ثم درس الإخراج السينمائي في أكاديمية الفنون فيها.

يكتب السيناريو التلفزيوني منذ العام 1995. له الكثير من الأعمال الساخرة (منها: بطل من هذا الزمان، بقعة ضوء، ضيعة ضايعة، الخربة، ضبوا الشناتي) وعدَّة أعمال موجَّهة إلى الأطفال.

يرسم الكاريكاتير بشكل متقطِّع، نشر العديد من رسومه في الصحف البيلاروسية، وشارك في معارض دولية مختلفة. نشر العديد من قصصه في الصحف العربية والبيلاروسية. وترجم عدَّة مجموعات قصصية.

صدر له:

1. فنُّ الكاريكاتير من جدران الكهوف إلى أعمدة الصحافة، 1999.

2. فنُّ الكاريكاتير في الصحافة الدورية. 1999.

3. صانع الفراء، مسرحية للأطفال، 1999.

4. المحطَّة الأخيرة، رواية، 1999.

5. جلَّنار، رواية، 2001.

6. أمُّ الطنافس، مجموعة قصصية، 2014.

7. دفتر الأباطرة، مجموعة قصصية، 2016.

إصدارات دار ممدوح عدوان للنشر والتوزيع



هذه المجموعة تقدم مشاهدات من حروب مختلفة كان جيلنا إما شاهداً عليها وضحية لها، أو خاض غمارها. وتمتد من هزيمة حزيران التي تم تجميلها بتسميتها "النكسة"، مروراً بكل الحروب الأخرى التي لم تنتهِ بالحرب الأخيرة الدائرة رحاها الآن.

تقدم القصص المطروحة حالات إنسانية مختلفة يمر بها إنسان الحرب، والتي أصبحت سورية أشبه ما تكون بمختبر عملي لها لكثرة ما عانى أهلها من ويلات الحرب، فيها معاناة طفل الحرب الذي اقتلع من بيته وملعب طفولته ليبدأ رحيلاً لن ينتهي أغلب الظن بعودة ما، طفل الحرب الذي ألفها وتعايش معها لاحقاً ليصبح ضحية من نوع آخر؛ حين تتحول الشظايا التي خصصت للقتل إلى ثروة نقدية ابتكرها عقله البريء، ومن ثم يصبح عنصراً في هذه الحرب ليكون في هذه المرة ضحية على شكل مقاتل، فرضت عليه الظروف أن يوضع بين خياري (إما القاتل أو المقتول).

لن تكفي قصص العالم كلها للتعبير عن الأهوال والمعاناة التي يعيشها الإنسان في الحروب، وهذه القصص هي نموذج بسيط منها على شكل عينات من مراحل مختلفة، ومع الأسف يبدو أن هذا الدفتر سيبقى مفتوحاً إلى أجل غير مسمى، وستنضم إلى صفحاته قصص أكثر مأساوية، لأن التجربة أثبتت أن المأساة على أرضنا تأخذ أشكالاً متصاعدة وتولد وجعاً يكبر أكثر في كل يوم. ويبدو من خلال المشهد الذي تجري أحداثه أننا سنجرب كل أشكال الوجع.





